علم النبات في كتاب عجائب المخلوقات لزكريا القزويني

د. أنس خالدوف

تعد المخطوطات المزينة بصور النباتات والزخارف النباتية من المصادر المهمة لدراسة مدى علم النبات ومكانته في المجتمع العربي والثقافة العربية . ويتزايد الاهتمام بزينة المخطوطات في أيامنا مع نمو أهمية الفنون الجميلة وعلوم الطبيعة في حياة العرب المعاصرة . بيد أنه على الرغم من كثرة الكتب الخطية العربية لا نجد عدد المزينة منها الا نزراً يسيراً . ومن المؤلفات القليلة التي كثيراً ما كانت تزين نسخها بالصور كتاب عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات للقزويني .

ومن المعلوم أن هذا الكتاب انتشر انتشاراً واسعاً بروايات مختلفة ، منها الروايات العربية الأصلية ومنها المترجمة الى الألسنة غير العربية مثل الفارسية والتركية الخ ، ونسج على منوال القزويني من جاء بعده من المؤلفين واختصر كتابه أو زاد عليه حتى صار في القرون السبعة الأخيرة من أشهر الكتب عند المثقفين المسلمين وكان يشكل آراءهم عن الكونيات . وقد ألّف كتاب عجائب المخلوقات في النصف الثاني للقرن ١٣/٧ في العراق المنضمة وقتئذ الى المملكة الايلخانية .

وينحصر ما نعرفه عن أحوال المؤلف ، في أن أبا يحيى زكريا بن محمد بن محمود القزويني كان عربي الأصل ، ولد في سنة ٦٠٠ تقريباً في الأسرة التي أقامت بقزوين منذ زمن وألمت باللغة الفارسية ، وبعد دراسته الابتدائية في المدينة نفسها زار بغداد ودمشق وسنجار وجنابة ولقي بعضاً من مشاهير عصره منهم ضياء الدين ابن الأثير وابن العربي وابن سعيد الغرناطي ، وفي عهد الخليفة المستنجد بالله صار قاضياً لواسط والحلة وبعد حصار بغداد وسقوطها سنة ١٢٥٨/٦٥٦ اختص بالأدب والعلم . وأما كتابه عجائب المخلوقات

فقد أهداه الى عطا ملك الجويني وزير هولاكو ، ويبدو أن هذا الوزير كان يلطف به ويجيره ، وقد توفيا كلاهما في سنة واحدة هي سنة ٦٨٢/١٢٨٣(١) ٠

لقد صار كتاب عجائب المخلوقات من الكتب الأولى الأصلية في الكونيات وسلك مؤلفه فيه مسلكاً جديداً ، وسبق الى فن بديع في الأدب العربي الاسلامي مع أنه تبع من كان قبله من العلماء الجغرافيين والطبيعيين الأقدمين واستفاد من مؤلفاتهم كثيراً ٠ وكتابه أشهر من أن نطيل الكلام في تركيبه ومحتواه ، وان كان يلاحظ أن نصه لم ينشر بعد بتحقيق علمي ولننتقل الى ما يخبر فيه عن النبات ٠ يشكل النظر الثاني في النبات ثمن كتاب عجائب المخلوقات تقريباً أي ٥٦ صفحة من الطبعة الأوروبية(٢) ٠

ويتكون من مدخل قصير ومن مائتي مقالة عن مائتين نبات ٠ وأما النسبة بين مواد الكتاب وبين مواد علم النبات عند القدماء فتبين من المقارنة التالية : ذُكر في كتاب ديسقوريدس ووُصِف نحو ٤٠٠ نوع من النباتات ، ونحو نفس الكمية في الكتاب الثاني من القانون في الطب لابن سينا ونحو ٧٥٠ في كتاب الصيدنة للبيروني(٣) ٠

وتنقسم النباتات عند زكريا القزويني الى فصيلين : أشجار ونجوم ويبتدىء الفصيل الأول بوصف عام ويتلوه الأوصاف المنفردة لكل نوع من الأشجار مرتبة على حروف المعجم من آس الى ياسمين وهي ٦٦ نوعاً بالجملة ٠ والفصيل الثاني يبتدىء بكلمات المؤلف « النجم كل نبت ليس له ساق صلب مرتفع » ٠ ويحتوي الاخبار عن ١٣٤ نجماً وأسماء النجوم مرتبة أيضاً على حروف المعجم ، بينما نجد أسماء النباتات في كتب أخرى مرتبة على الأبجدية بلا تفريق بين شجر ونجم ٠

ويقول المؤلف : ان الله تعالى أجرى عادته في كل سنة أنه يحيي الأرض بعد موتها فيجري يابس أنهارها وينشر رفات نباتها حتى ترى من الأوراق مخضرة ومن الأزهار محمرة ومصفرة ٠٠ ومن الأمور العجيبة القوة التي خلقها الله تعالى في نفس الحب أنها اذا وقعت في بطن الأرض جذبت بواسطة تلك القوة الرطوبة التي تصلح أن تكون لها غذاء من نفس الأرض ٠٠٠ ثم ان عقول العقلاء متحيرة في أمور الحشائش وعجائبها وأفهام الأذكياء قاصرة عن ضبط خواصها وفوائدها وكيف لا مع ما يشاهد من تنوع كل لون منها كالحمرة مثلا ٠٠٠ ولعل تكرر عبارات الاعجاب ، والتحير تكمن فيه الرغبة في اثارة اهتمام القارىء ولفت انتباهه ولعله يحدد انتخاب المواد من قبل المؤلف ٠ وأما اخباره عن النباتات بعينها فأكثره جدي اعتيادي ولا تجد فيه ما تنتظره من العجائب والغرائب الا نادراً وكذلك قليلا ما يتكلم المؤلف من عنده ، بل انه يصوغ قوله من مقتبسات الكلام المنضدة ٠ ويمكن أن نحسب المقالات المنفردة مركبة من جزأين هما وصف النبات وتعداد فوائده ، ويزاد عليهما أحياناً ملاحظة حول اشتقاق الكلمة أو عن زرع الشجر أو النجم ٠

ومن الملاحظ أن جزأيْ المقالة المذكورين ليسا متساويين فأحياناً ينحصر الوصف في عبارة واحدة مثل « بطم شجرة جبلية معروفة ، أو بيش نبت ينبت بأرض الهند ، أو جرجير هو الايهقان ، أو حرشف ذو شوك له بالفارسية كنكر · وأحياناً نلتقي وصفاً أطول كمثل أم غيلان شجرة من عضاه البادية كثيرة الشوك» ، أو خلاف شجرة الصفصاف ويقال لها بالفارسية بيد خشبها خفيف جداً ولذلك يتخذ منه الصوالج ورقها على شكل الخنجر · وتثبت بيانات المؤلف انه كان يجيد اللغة الفارسية ·

وأما الجزء الرئيسي في كل مقالة فيتكون من تعداد خصائص وفوائد طبية لشجر أو نجم فمثاله « بنفسج هو النبت المشهور ينبت في مواضع ظليلة حسنة زهره اذا شرب بالماء نفع من الخناق وأم الصبيان قال الشيخ الرئيس انه يسكن الصداع الدموي شرباً وطلاء وينفع الرمد الحار ودهنه طلاء جيد للجرب ، وقال غيره : شمّه مضر لصاحب الزكام » · ويظهر أن المرجع الأساسي للقزويني في هذا الجزء من مقالاته هو الكتاب الثاني في الأدوية المفردة من القانون في الطب لابن سينا المذكور دوماً بلقبه وهو الشيخ الرئيس · فاختار القزويني نبذاً من كتاب ابن سينا ورتبها من جديد · ويبدو أيضاً أن مقتبساته من ابن سينا أوسع بقليل مما أشار اليه أنه قوله(٤) وحتى ان بعض استشهاداته بمصادر أخرى تدل على نقلها بوساطة القانون ·

والمرجع الثاني الذي يعتمد عليه مؤلف الكتاب هو « صاحب الفلاحة » ونحسب أنه يعني بلا شك كتاب الفلاحة النبطية الذي نقله الى العربية ابن وحشية ولهذا الكتاب صيت كبير في الأدب العربي ، وقد اهتم بدراسته كثيرون ومنهم الأستاذ · د· خفولسن من بطرسبرج ولكن لم يتضح الى الآن الكثير من مسائل نشأته ، وتركيب نصه ، ومؤلفه ، وزمان تأليفه ، وترجمته العربية(٥) ·

وتوجد الاشارات الى صاحب الفلاحة في ٤٤ مقالة ·

وأما المرجع الثالث فهو كتاب الخواص(٦) لبليناس الحكيم المذكور في ١٣ مقالة · وبه يتم تعداد أهم مصادر النظر في النبات من كتاب عجائب المخلوقات فما عدا ذلك نجد فيه بعض الاشارات المشتتة الى الحديث الشريف والقرآن الكريم وقول علي بن أبي طالب وأقوال كعب الأحبار والمأمون والأصمعي ومعمر بن المثنى والجاحظ والتنوخي وابن الفقيه وديمقريطس وديسقوريدس وجالينوس وابن ماسويه ومحمد بن زكريا وأبي الفرج الطبيب ، أو أقوال بعض الأطباء والفقهاء غير المسلمين ويذكر كل واحد منهم مرة أو مرتين أو خمس مرات على الأكثر · واشارة المؤلف الوحيدة الى معاصريه هو « ومن الحكايات العجيبة ما حكى لي بعض أصدقائي أنه كان ينبت ببعض جبال مدينة اربل من الهيليون شيء كثير » الخ ·

وقع كتاب القزويني في أيدي العلماء من أوربا منذ قرنين فنشروه وكتبوا عنه أبحاثاً ، وترجموا منه أقساماً الى لغاتهم · ورغم ذلك لا تزال مشكلة مصادره غير مبحوثة كما كتب الأستاذ كراتشكوفسكي وكرره الأستاذ لفيتسكي · لقد رأينا أن هذه المشكلة تتضح بسهولة بالنسبة للقسم الخاص بالنبات ، ومصادره تحدد محتواه الذي لا يختلف عن

كتب النبات والأدوية المفردة الا قليلا ، بل يتميز بصورته الموجزة • ويحفظ في خزانة معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم للاتحاد السوفييتي في ليننجراد ٤ مخطوطات لكتاب عجائب المخلوقات للقزويني ،ومخطوطان منها مزودان برسوم وهما كبيرا الحجم • أحدهما هو من مجموعة ايطالينسكي ،عدد أوراقه ٢١٥ وفقد منه ورقة واحدة ، لا يُعرف تاريخ نسخه ويمكن أن ننسبه الى القرن الثامن الهجري ورقمه E ٧ • وأما ثانيهما فقد اقْتُني في سنة ١٩١٤ من أثينا ،وأتَمَّ نسخه سنة ٩٨٨/١٥٨٠ غياث الدين ابن مجد الدين الأصبهاني ورقمه D ٣٧٠(٧) • ويحتوي كلاهما نفس الرواية المنتشرة من نص الكتاب وفي كل منها أشكال ٦١ شجراً(من ٦٦) • وأما الأنجم فعدد رسومها في E ٧ ١٣٣ وفي D ٣٧٠ ـ ١٢٦ • فاذا لم يتساو عدد المقالات وعدد الرسوم وكانت أوصاف النباتات قصيرة وتقليدية كتابية، صعُبَ ايجاد التناسب بينهما ، وان ساعدتنا مجاورة النص والرسم . ويظهر في الرسوم بعض تبسيط ، حتى بعض تخيل •

من المعروف أنه توجد صعوبات في تعيين الأدوية النباتية حسب المقاييس المعاصرة الدقيقة وقد اتضحت هذه الحال عند الترجمة المفسرة لكتب ابن سينا والبيروني الى اللغة الروسية في طاشقند ، وكتب المتخصص م كاراسك: «ان تعيين النبات بمجرد اسمه لا يزال شرطياً عند قصر وصفه أو عدمه وكانت معايير الأدوية غير موحدة وكان من الممكن أن يعني الاسم الواحد أدوية مختلفة أو يسمى نفس الدواء بعدة أسماء أو تسمى أجزاء النبات الواحد بكلمات شتى من غير الاشارة الى منشأها العام »(٨) • فلذلك كان لرسم النبات في الكتب العلمية غرضان : عملي وفني ، وهما يساعدان في تعيين نوعية النبات وتزيين الكتب الخطية •

ولم تكن المصادر المذكورة لكتاب عجائب المخلوقات مصورة على حد معرفتي ، فاذن ارتبط الحديث والرسم في مخطوطات كتاب القزويني ، وكتبت أقدم نسخه في سنة ٦٧٨/١٢٨٠ وما زال المؤلف على قيد حياته وتحفظ النسخة الآن في مدينة مونخن تحت رقم ٤٦٤ ، وفيها رسوم ملونة وقد افترض أحد الباحثين ف• بودنهايمر(٩) بأن رسم الصور قد تم بمراقبة المؤلف ، ولا سبيل الى اثبات هذا التخمين مع عدم الخبر عنه •

والآن نتساءل عن منبع رسوم النباتات في المخطوطات العربية ؟ لقد نشأ علم النبات عند العرب في البداية مع نشاط اللغويين الذين قاموا بجمع أسماء النباتات وأجزائها ووصف ميزاتها وخواصها • فمن هؤلاء اللغويين أبو عمرو الشيباني وأبو زياد يزيد الكلابي والنضر بن شميل وأبو زيد الأنصاري والأصمعي وابن الأعرابي وأبو نصر أحمد الباهلي وابن السكيت(١٠) وأشهرهم وأجمعهم للخبرة أبو حنيفة الدينوري مؤلف كتاب النبات وهو في سبعة أجزاء ، فقد اعتمد عليه من كتب في هذا الموضوع بعده • ومخطوطات كتب النبات عديمة الرسوم •

ومن جهة أخرى ترجع مبادىء علم النبات في اللغة العربية الى جذور أغريقية ـ يونانية واليها يرجع الاعتياد في تزويد الكتب برسوم النباتات ، ويتعلق قبل كل شيء برواية

عربية لكتاب ديسقوريدس في الأدوية المفـردةوقد ألف في سنة ٧٨ ميلادية ٠ فنقله الى اللغة العربية أصطفن بن بسيل للمتوكـل على الله وأصلح ترجمته حنين بن اسحاق وأما النسخة المزودة بالرسوم فيخبر عنها ابن أبي أصيبعةويقول : « قال ابن جلجل ورد هذا الكتاب الى الأندلس وهو على ترجمة اصطفن منه ما عرف له أسماء بالعربية ومنه ما لم يعرف له أسماء فانتفع الناس بالمعروف منه بالمشرق وبالأندلس الى أيام الناصر عبد الرحمن بن محمد ٠٠ فكاتبه أرمانيوس الملك ٠٠٠ وهاداه بهدايا لهاقدر عظيـم فكـان في جملـة هديتـه كتـاب ديسقوريدس مصور الحشائش بالتصوير الرومي العجيب ٠٠٠ وكتب أرمانيوس في كتابه الى الناصر أن كتاب ديسقوريدس لا تجتنى منه فائدة الا برجل يحسن العبارة باللسـان اليوناني ويعرف أشخاص تلك الأدوية ٠٠٠فبعث ٠٠٠ براهب يسمى نيقولا فوصل الى قرطبة سنة ٣٤٠ وكـان يومئذ بقرطبـة من الأطباء قوم لهم بحث وتفتيش وحرص على استخراج ما جهـل من أسـماء عقاقير كتـاب ديسقوريدس الى العربيـة ٠٠٠ فصـح بحث هؤلاء النفر الباحثين عن أسماء عقاقير كتـاب ديسـقوريدس تصحيـح الوقـوف عـلى أشخاصها(١١) ٠ ولا يذكر أيضاً عن الصور في الرواية العربية وعلى كل حال من المعـروف أن نسخ كتاب ديسقوريدس الموجودة في أيامنا أكثرهـا مصـورة ٠

ثم أصلح الترجمة القديمة مرة ثانية أبوعبدالله الحسين بن الحسـن الناتلي وأهـدى روايته في سنة ٣٨٠/٩٩٠ الى أبي علي بن سمجور عامـل الدولة السامانيـة في آسـيا الوسطى(١٢) ٠ واشتهر هذا الناتلي كمؤدب أبي علي بن سينا في حداثة سنّه ولكن المصادر صامتة عن كون مخطوط روايته مزوداً بالرسوم أم لا ٠

وأما الترجمة الأخرى لكتاب ديسقوريدس فأخرجها مهران بن منصور بن مهران بتولية نجم الدين البي بن تيمور تاش (٥٤٧/١١٥٢ ـ ٥٧٥/١١٧٩) واعتمد على رواية حنين ابن اسحاق باللغة السريانية والمخطوط الفريد لهذه الترجمة يحفظ بمكتبة الرضى بمدينـة مشهد في ايران وفيـه رسوم ملونة لنبـاتات كثيرة ، وسـبق الى استكشافه صـلاح الدين المنجد في سنة ١٩٦٠(١٣) ٠

وخلاصة الكلام أن الاعتياد في تزويـد كتب النبات بالرسوم يتتبع من القرن الرابع على الأقل وصار الاعتياد تقليـداً متواتراً ، وأساس حكمنا هذا هو مراجعات نادرة ونماذج قليلة ، ويبدو أن تطوراً معيناً في صناعة الرسم عند العرب جرى في القـرن السابع الهجـري وتؤكد هذه الملاحظة بضع نسخ مصورة للمقامات الحريرية من نفس المكان والزمان ٠

ونرى استمرار تلك الخطة التقليدية في نسخ كتاب عجائب المخلوقات للقزويني اذ أنها زودت بالرسوم ٠ ومن الممكن أن مخطوطنا VE صنع في العراق وأما D ٣٧٠ فصنع في شـرقي ايران أو غربي بلاد الهند والنماذج منهمـا نشرت في كتاب كراتشكوفسكي (رسوم ٤٨ ـ ٥٣) ، من بينها صورة ورق ١٤٣ آ مـن D٣٧٠ مـع أشـخاص الأشجار الثلاثة وانـه ليسرني أن يثير تقريري هذا عناية الباحثـين في مثل هذه الدراسات ٠

في مثل هذه الدراسات .

I M.Streck. Al-Ķazwīnī. - EI, II, Ss.900-904; И.Ю.Крачковский. Избранные сочинения, т.IУ. Арабская географическая литература. М.-Л., 1957, с.358-366; T.Levicki. Al-Ķazwīnī. - EI, New Ed., IV, pp.865-867.

2 Zakarija Ben Muhammed Ben Mahmud el-Cazwini's Kosmographie..., hrsg. von F.Wüstenfeld. Göttingen, 1849, Ss.245-301.

3 Абу Райхан Беруни (973-1048). Избранные произведения, IУ. Фармакогнозия в медицине. Исследование, перевод, примечания и указатели У.И.Каримова. Ташкент, 1973, с.37.

4 وقد استفدنا للمقابلة طبعة Абу Али Ибн Сина (Авиценна). Канон врачебной науки. Книга II. О простых лекарствах. Ташкент, 1956.

5 F.Sezgin. Geschichte des Arabischen Schrifttums. Bd IV, Leiden, 1971, Ss.318-329.

6 ومن الممكن ان هذا الكتاب كان يسمى بكتاب الفلاحة انظر

Sezgin, op. cit., IV, p.316.

7 Каталог арабских рукописей Института народов Азии Академии наук СССР. Вып.2. А.И.Михайлова. Географические сочинения. М., 1961, с.23-26, №№ 13-14.

8 Абу Али Ибн Сина. Канон. Книга II, с.700-701.

9 Крачковский, уп. соч., с.361.

10 Sezgin, op. cit., IV, pp. 331 - 343 .

11 Ibn Abi Useibia. Hrsg. von A.Müller, Königsberg i. Pr., 1884, 2, S.47.

12 Каримов, уп.соч., с.68-69; Sezgin, op. cit., III, p.315.

13 Каримов, уп. соч., с.69, прим.285; Sezgin, op. cit., III, p.60.